بين القلب و القبيلة
محمد رمضان شحاتة
#صلاتي_حبل_نجاتي

محمد رمضان شحاته

بين القلب والقبيلة

يوم عادي كأى يوم مر على محمد فى العمل إلتقي فيه بأناس إعتاد لقائهم إسبوعيا وأناس يوميا وأناس كان يتواصل معهم من حين لآخر ، يربط بينه وبينهم رباط الحب فى الله الذي يفوق كل حب ... ذلك الرباط الذى يقوى العلاقات ويجلعا تعلو وتسمو ، لم يعتد على ملاقاة البعض كثيرا ولكن حبه لهم جعله يلقاهم دائما في مخيلته وفى قوافل الدعاء الصاعدة الى السماء ، هذا هو الحب الذى يشبه إلى حد كبير الماء العذب الذى يخلو من الشوائب فهو أيضا حب صافي يخلو من الحقد لأنه لله وفي الله

إمتزجت روحه الطيبه مع أصدقائه فأحبوه وشعروا أنه جزءاً لا يتجزأ من حياتهم ، من أراد السفر استصحبه ... من أراد إنجاز مشروع إستشاره ... من أراد قراءة كتاب أخذ رأيه فيه قبل أن يغوص في أعماقه ... حتى من أراد أن يتزوج أو يتقدم لخطبة فتاة سأله عن المواصفات التى ينبغى أن تتوفر فيها ليسأل هو عنها ثقة فى رأيه واطمئنانا أنه لن يختار له إلا الخير الذي يرضاه لنفسه... وها نحن بصدد الحديث عن أحد أولائك الأصدقاء يسأله عن فتاة تقدم لها وإن

لم يكن هذا الصديق من أقربهم إليه إلا أنه لا أحد يشعر أن غيره أكرم عليه منه لإحتفاءه به وإكرامه إياه والسعي فى ما يسعده وإن كان على حساب نفسه ووقته ...

فكر كثيرا في شأن صاحبه محمود وبدأ يشعر بشئ ما ، يبدو أن الامر سهل للغاية ولكن كلما فكر في صديقه انتابته الحيرة . فهو يريد أن يختار له ما يناسبه وأن يدله على الخير ، جلس على مكتبه بعد أن عاد من عمله وبدأ يناقش الأمر بينه وبين نفسه ، راودته بعض الأفكار الخاصة عن الطريقة التى يمكن أن يساعد صديقه بها فى إختيار زوجة المستقبل وشريكة الحياة الزوجية ... ولكن ماذا عنه فهو صاحب القرار وقد يختلف مناط التفكير بين البيئة التي يسكن فيها محمد والبيئة التى يسكن فيها محمود ... وأمامه الآن فتاة عرضها عليه والده لخطبتها له ...

ثم توقف محمد عن التفكير وكأن عقارب الساعة قد أصابها العطب وأمتنعت عن الحركة في مشهد درامي ينم عن الذهول المفاجئ ...

يا للعجب لم يكن يتخيل أن التفكير القَبَلِيّ الذي كان يقرأه فى القصص ويسمع عنه في سالف الحكايات التى عاف عليها الزمان ليس إلا ، لا زال موجودا حتى الآن في عصر الذرة والأقمار الصناعية والتكنولوجيا المتقدمة ... لذلك لما سأله قديماَ عن مسكنه ومسقط رأسه أجاب بحزن وكأنه تمنى ألم يكن من سكان تلك البلدة التى تعارضت عاداتها مع سعادته بل ومع صريح القرآن وصحيح السنة ... ذلك الأمر الذي تناقلته الأجيال التي تسكن تلك الديار عن بعضها البعض ... كثيرون هم الذين فكروا فى تغيير هذا المذهب الضال لكن قوبلوا بالصدام العديد والعناد الشديد ، ومن تُسَول له نفسه الخروج عن إطار المجتمع يُعامل معاملة المرتد عن دينه المفارق لملته ويقاطع وكأنه إرتكب جرماً لا غفران له ولا عفو عمن قام به ... هذا فى أحسن الأحوال فقد تسوء الأحوال ويقوم من حوله بالإعتداء عليه ويتم ذلك على مرأي ومسمع من أهله ، إن لم يكن أهله هم القائمين على ذلك بأنفسهم

أخذ محمد نفسا عميقا وقام من مجلسه لكى يعرض عليه خلاصة ما فكر فيه

... في وقت متأخر من الليل هاتف صديقه محمود لكى يعرف منه التفاصيل الخاصه بتقدمه للزواج من قريبته هذه بعد أن طلب منه والده ذلك أو قل إن شئت –فرض عليه ذلك– فهى تناسبه تماما لا لكونها فتاة أحلامه ، ولا لوجود قصة حب عتيقة بينه وبينها ، ولا لتوافر الأساسات التى يمكن أن يبني عليها عريض آماله ويرسم فوقها طريق أمانيه فقط لكونها من قبيلته وهذه كفيلة بأن تجعله يَقبل مرغماً كل ما يُملى عليه وإن لم ترضاه نفسه ، فها هنا معقل دك الأحلام وتحويلها إلى رُكام ، فلا سبيل لأن ترسم حياة خاصة بك فإنك ستكتشف أن ذلك مجرد سراب ستفيق منه على صدمة كبيره لم تكن تتخيلها ، في بيئة إزهاق الأرواح عندها من أيسر ما يكون ولأتفه ، الأسباب فكيف بأحلام وأمنيات لا قيمة لها فى عرف القبيلة؟؟

لا زلت أذكر الأثنى عشر جثة التى أُرديت في وضح النهار من بين فصيلين تشاجرا لأن طفلاً صعد على شجرة فكسر فيها غصناً دون قصد ، فدارت رحي الحرب بين القبلتين ولم تخمد نيرانها إلا بعد حصاد

هذا العدد الكبير من الأرواح التى راحت ضحية التعصب ، "التعصب للقبيلة" تلك العصا التي فت بها الشيطان

في عضد كل مبادئ الإنسانية ...

أمسك بهاتفه وبدأ في إستخراج رقم صديقه ، رن جرس الهاتف

-محمد : "السلام عليك حبيبي الغالى"

-محمود : "وعليكم السلام ورحمه الله وبركاته ، كيف حالك يامحمد؟؟ كنت لسه هتصل بيك بس حمدا لله انك بادرت بالاتصال"

-محمد : القلوب عند بعضها يا رفيق الدرب

-محمد : عملت إيه إمبارح ياكبير هواره؟؟ مع إبتسامة محمد المعهوده

فحكى له أنه ذهب هو ووالده إلى بيت أقاربه وكان ذلك بعد صلاه المغرب ، ذهب معه لكى يتقدم لخطبة إبنتهم وعندما دخلوا إلى المنزل وألقوا السلام عليهم وشرع والده بالحديث مع والد العروسه الذي أبدى ترحاباً واسعاً وثناءاً جميلا وسروراً عريضا ، فمن هذا الذي يرفض رجلا مثل محمود؟ شهم الطباع كريم الخلق ...

وبعد قليل طلب والده من والد الفتاه أن يحضرها لكى تتم الرؤيه الشرعيه

أتت الفتاه وجلست بجوار والداها نظر إليها محمود ووجه لها بعض الاسئلة التى جاءت بعد أخذ الميثاق بالصراحة التى ظن أنها جُل ما سيجده مما كان يرجوه ، وقام بمناقشتها في بعض الأمور وعندما إنتهي من طرح الأسئلة إنقطع عنده الشك باليقين وتراءى له ما كان يلمحه من بعيد ...

فهذه الفتاه ورغم أنها تناسبه على حسب قوانين قبيلته وعاداتها إلا أنها لا تناسبه البتة ... هو يريد فتاة ملتزمة قد ضبط الشرع حياتها وجمل أخلاقها وحسن ظاهرها بعد أن أصلح باطنها ، إلا أنه لم يجد بغيته فعاد بالخيبه وعادت معه ذكريات منذ زمن بعيد لم يكن يريد أن يتذكرها لا لكونها سيئه بل لكونها جميله ... جميله إلى حد أنها ستنغص عليه حياته كلما فشل في البحث عن شريكة حياته لأنها كانت بين يديه لم يكن ينقصها إلا أن تكون زوجته فيرتاح باله ويلقي هذا الحمل عن عاتقه ويجد من يشاركه فى حمله لكن بسبب تلك الدعاوى المنتن٥ من التفكير

القبلي لم يستطع الى ذلك سبيلا وهو الآن أمام فتاة يملأ حياتها الغناء الذي ينبت فى القلب النفاق كما ينبت الماء البقل ، وتقضي وقت فراغها الذي هو رأس مال المرء في حياته أمام المسلسلات التى تفعل بالأخلاق الأفاعيل ، وتتم الأمر بترك الصلاة والتقصير فيها ليجتمع فيها الشر كل الشر

ليته أستطاع أن يظفر بالأولى التى رأي فيها حلمه المفقود وأمله المنشود ... على الرغم أنه أستطاع أن يقلب حياة هذه الفتاه الأولى رأسا على عقب ، فمن مجرد حجاب لا يتوافق مع ضوابط الشرع إلى نقاب ، ومن أغانى ومسلسلات إلى دروس علم ومصاحبة الأخيار والسير في طريق الطاعة الذي جعل منها فتاة أخرى لا تمت إلى سابق عهدها بِصِلَة ، حتي تجلى له ما كان يرنو إليه فقام على الفور بالذي لابد منه ليستقيم له حاله ويتم له ما كان يرجو وتكلم مع والده الذي رغم معتقده السابق أستجاب لكلام ولده البار لثقته في رجاحة عقله وحسن إختياره وضبطه للأمور ، ولم يكن هناك إلا عقبة واحده وهى أهل الفتاة ... إستطاع محمود بما أوتى من حنكة أن يقنع والدها أيضا

وأستجاب لكلامه ولكن قال أمهلنى حتى أستشير إخوتى وباقي أفراد قبيلتى ، وهنا كانت الطامه الكبرى التى وقعت على أذنيه وقوع الصاعقة المدوية في ليلة حالكة السواد شديدة الظلمة فقد رفض أعمامها وذهب الوالد الذي لم يكن أقل حزنا من محمود ليبلغه الخبر بعد أربعة أيام مرت عليه كأنها أربعة أشهر فى وهو ينتظر القرار ...

"يابني أنا مش هلاقي أحسن منك لبنتنا بس أنا مش اقوى من الظروف وكل شئ قسمة ونصيب وربنا يرزقك باللى أحسن منها"

وفي داخل محمود شخص يملأ جوفه ضجيجاً ولا يسمعه غيره يقول فى كمدٍ لن أجد أفضل منها...

ومنذ ذلك الوقت وهو يشعر وكأنه في وادٍ وروحه فى وادٍ آخر وأصبحت الحياة جامدة لا معنى لها ولا قيمة ، فشعوره بالتحطم فاق شعور بحار كاد أن يصل إلى بر أمان وشاطئ نجاة تلمحه من بعيد فتراقص قلبه فرحاً فقد في سبيله منذ ما يقارب العشرين سنة ويزيد ، فأرتطمت سفينته بضخرة صلبة لتقضي على كل طموحاته ويهوي في قاع بحر موحش متلاطم الأمواج

شهق محمود شهقة مدوية وقال:-

وها أنا الآن ياصديقي لا أملك إلا أن أحكى لك حالى لتواسيني وتخفف عنى ما أنا فيه من الحزن الجاثم على القلب كالليث الهصور على فريسة تلفظ آخر أنفاسها ، وتعطيني من الأمل جرعه أكمل بها ما تبقي لي من عمر فى هذه الحياة التى لولا أنى أؤمن بعدل خالقها لتفطر قلبي من اليأس وتملكه الوهن

تنهد محمد بعد سماع تلك الكلمات وراحت تنهال عليه الذكريات ، حين قرر وهو فى ال١٩ من عمره أن يتقدم لخطبة فتاة فى نفس عمره لكنها ليست في نفس بلدته فضلاً عن كونها ليست من نفس عائلته ، ويفصل بينها وبينه مسافة تزيد الكثير والكثير على مسافة القصر فى الصلاة ... إعترض والداه أيضا وقتها "يابني اللي تعرفه أحسن من اللى متعرفوش" لكن بعد محاولة واحده في وقت زهيد وافق والده وذهب معه لخطبة الفتاة التى وافق أهلها على الخطبة رغم ما ذكرت ، وحتى قرار إنهاء تلك الخطبة -التى لا يتسع المجال للحديث عنها الآن- لم يكن صعبا كما ذكر له محمود أن هذه مشكلة كبيرة جدا

إن فكرت فيها فضلا عن القيام بها في عرفهم فهى تسبب العاهات المستديمات في نفوس الأقارب

–شفت بقي الماساة اللى عندنا ياعم محمد "قطع محمود حبل الافكار المتوارد ليخرج محمد بهذه الجملة عن شروده الذي سافر فيه لخمسة أعوام مضت يالها من ذكريات قد يتسنى لنا الحديث عنها فيما بعد ... لم يرد أن يقاطع صاحبه وأستمع له بكل قلبه محاولاً التخفيف عنه وإختراع "الأفشات" التى أشتهر بها ، فجعلت محمود يفتح فمه على مصراعيه من كثرة الضحك...

–أسكت بقي يا محمد مش قادر ، مع صوت ضحك أتى من أعماق القلب قال ذلك محمود ، فأخذ محمد يصبره ويخفف عنه ويبشره بالأجر على الصبر وأن بعد العسر يسر ورضي الوالد من رضا الله عز وجل

لينهى محمود كلامه وقد شعر بالراحة أنه أخرج اللظى من صدره وأستبدلها بكلمات صديقه محمد التى أسعدته كثيراً وجعلته على يقين أن الليل وإن طال فإن الفجر آت لا محاله ، وأشد ساعات الليل سواداً هى التى تسبق الفجر

فقضاء الله نافذ ، والعبد بالرضا ينال ما لم يكن يدركه بالسعي الحثيث والجد المتواصل.

بقلم \ محمد رمضان شحاتة

#صلاتي_حبل_نجاتى